مقام المحبة عند الصوفية

بقلم الأستاذ
أبو الوفا التفتازانى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب بجامعة القاهرة

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه »

مقام المحبة من مقامات التصوف العالية ، ولا يصل إليه إلا قليل من السالكين الذين يختصهم الله بعنايته .

ويستند هذا المقام أيضا كغيره من مقامات الصوفية إلى شواهد من الكتاب والسنة ، فهو مستند إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فهذه الآية يمكن أن تتخذ أساساً لنظرية الصوفية فى الحب الإلهى ، سواء أكان حب الله للإنسان أم حب الإنسان لله .

وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله لقاءه » ، وورد فى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول : « .. ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ... إلخ »

وقد كانت رابعة العدوية أسبق الصوفية الذين أشاعوا استعمال لفظ الحب فى الإسلام ، وكانت رابعة العدوية تعبد الله تعالى لا خوفا من ناره ولا طمعا فى ثوابه ، وإنما محبة لذاته ، واستمتاعاً بمطالعة جماله الأزلى على نحو ما يستفاد من قولها فى مناجاتها : « إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل

محبتك فلا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى » . وتقول رضى الله عنها كذلك : « ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقاً إليه » .

ولرابعة العدوية أبيات فى الحب الإلهى مشهورة بينت فيها أقسام الحب ، على نحو ما يتبين من قولها مناجية الله سبحانه وتعالى :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذا كا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سوا كا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أرا كا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذا كا

وكان الحارث المحاسبى من الصوفية الأوائل الذين تكلموا فى المحبة ، فيشرح لنا المحبة من الناحية النفسية قائلا : « المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه » .

وأبرز شعراء الحب الإلهى فى تاريخ التصوف الشاعر الصوفى المصرى شرف الدين عمر بن الفارض الذى كانت حياته فياضة بالحب وخاضعة للوجد ، فاستمع إليه قائلا :

إن الغرام هو الحياة فمت به ... صبا فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ومن ... بعدى ومن أضحى لأشجانى يرى
عنى خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا ... وتحدثوا بصبابتى بين الورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أملتها ... فغدوت معروفاً وكنت منكرا
فدهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عنى مخبرا
فأدر لحاظك فى محاسن وجهه ... تلق جميع الحسن فيه مصورا
لو أن كل الحسن يكمل صورة ... ورآه كان مهللا ومكبرا

وعمر بن الفارض أيضا هو الذى يقول :

نسخت بحبى آية العشق من قلبى ... فأهل الهوى جندى وحكمى على الكل

وكل فتى يهوى فإنى إمامه ... وإنى برىء من فتى سامح العذل
ولى فى الهوى علم تجل صفاته ... ومن لم يفقه الهوى فهو فى جهل

وهو القائل أيضا :

كل من حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا

وحذر كثير من الصوفية فى السالك من الانطلاق فى المحبة مع هواه كما حذروه من إساءة الأدب :

ذلك أن المحب لابد أن يعرف حدوده مع محبوبه فلا يتعداها ، ولابد أن يرضى عنه ، فلا يطلب منه دوام الوصلة ، لأن طلبه ذلك يعنى أنه لا يزال واقفاً مع حظ نفسه ، والصوفى على التحقيق هو القاهر لنفسه ولحظوظها ، فهو فى مقام المحبة يرضى بالجفاء كما يرضى بالوصال ، يقول يحى بن معاذ فى هذا المعنى الذى أشرنا إليه : « حقيقة المحبة مالا ينقص بالجفاء » ويقول أيضاً : « ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده » .

ولذلك كان مقام المحبة من شأن الكمل الذين لا يخشون على أنفسهم لأنهم جاهدوها وتخلصوا من دواعيها ، ولا أدل على ذلك من هذه الرواية : كان بعض الصوفية عند ذى النون المصرى فتذكروا المحبة فقال ذو النون المصرى لهم : كفوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسى ... ء إذا تأله والحزن
والحب يجمل بالتقى ... وبالنقى من الدرن

وقد كان الشاذلية من الصوفية يفضلون مقام الرضا على مقام المحبة للأسباب التى ذكرناها ، فالمحبة عند ابن عطاء الله السكندرى مثلا ، وهو من أئمة الشاذلية ، من أجل مقامات اليقين ولكنه لا يعتبرها أكمل المقامات التى يتحقق بها السالك فى طريقه إلى الله إذ يفضل عليها مقام الرضا ، وذلك لأن الراضى متجرد عن حظوظ نفسه وعن طلب هذه الحظوظ لها وتستوى عنده جميع الأحوال الواردة عليه من الوصل والقطع أو القرب والبعد لرضاه عن الله فى جميعها ، ولا كذلك المحب فهو يريد دوام الوصلة وشهود محبوبه ، فهو مع ما يريد لنفسه ، وبذلك يكون مقامه دون مقام الرضا ، وفى هذا يقول ابن عطاء الله للسالك : « إعلم أن المحبة هى من أجل مقامات اليقين حتى اختلف أهل الله أيهما أتم مقام المحبة أم مقام الرضا ،

وإن كان الذى نقول به أن مقام الرضا أتم لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى عليه وجود الشغف فأداه ذلك إلى طلب مالا يليق بمقامه ، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب ، والراضى عن الله راض عنه أشهده أم حجبه ! . المحب يحب دوام الوصلة والراضى عن الله راض عنه وصله أم قطعه . ليس هو مع ما يريد لنفسه بل إنما هو مع ما يريد الله له ، والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب ، والراضى لا طلب له ، ولنا فى هذا المعنى شعر :

وكنت قديما أطلب الوصل منهم ∴ فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلب له ∴ فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل
وإن ظهروا لم يظهروا غير وصفهم ∴ وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وابن عطاء الله حين يجعل مقام الرضا أكمل من مقام المحبة يخالف الغزالى الذى يجعل المحبة أكمل المقامات وأعلاها شأناً ويعتبر الرضا مجرد ثمرة من ثمراتها على نحو ما يستفاد من قوله فى الإحياء : « . . المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع مع توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها » .

وتفضيل ابن عطاء الله لمقام الرضا على مقام المحبه ليس إلا نتيجة لازمة عن فكرته الموجهة لمذهبه الصوفى ونعنى بها اسقاط الإرادة والتدبير (بمعنى عدم التفكير المتواصل فيما ستئول إليه الأمور فى المستقبل بشكل يؤرق النفس ويشغلها عن العمل المثمر) . فهو يرى أن مقام الرضا الذى يتحقق فيه السالك بالرضا عن الله فى جميع أحكامه إيماناً منه بالقدر وبما يستتبعه هذا من إسقاط الإرادة والتدبير يكون أكمل من مقام المحبة الذى يكون فيه السالك واقفاً مع ما يريد لنفسه من الوصلة بالله أو غيرها من الحظوظ ، ولهذا نجده يشير أيضا إلى أن من أخص معانى المحبة أن يكون المحب متحررا عن طلب الأعواض أو الحظوظ لأن هذا مظهر إرادته لنفسه وهو قبيح منه فى السلوك بالقياس إلى ما ينبغى عليه من أن يكون مسقطاً لإرادته وحظوظها على الدوام، وإلى هذا الإشارة بقوله فى حكمة من حكمه المقترنة بالعمق والنفاذ :

« ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضاً أو يطلب منه غرضاً ، فإن المحب من يبذل لك ، ليس من المحب من تبذل له ! » أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

رئيس الجمعية الإسلامية ببريطانيا يقول :

١) الطرق الصوفية ، هى نواة الوحدة الإسلامية .

٢) التصوف هو الذى شكل الشخصية الإسلامية .

٣) فى حديقة هايد بارك بلندن منبر صوفى .

٤) الجامعات الأوربية تدرس التصوف وتؤمن بأنه رسالة الغد .

استقبلت دار المشيخة العامة للطرق الصوفية الدكتور محمد مكين أحد كبار رجال الفكر الإسلامى فى « سيلان » ورئيس الجمعية الإسلامية بجامعة لندن ، وقد طار سيادته من لندن إلى القاهرة ليقابل سماحة السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية ليستعين بسماحته على إعداد رسالته التى سيقدمها إلى جامعة لندن عن الطريقة الشاذلية وأثرها فى تطوير المجتمع الإسلامى وعاداته ، ومكانتها من القيادات الإسلامية التى كافحت الاستعمار فى الشمال الأفريقى .

وقد استقبله سماحته شاكراً له زيارته واهتمامه بالدراسات الإسلامية الصوفية . وجعلها جزءاً من التراث الفكرى العالمى الذى تعنى به الجامعات الكبرى .

وفى ندوة علمية صوفية مباركة ترقرق الحديث وتشعب حول التصوف ورسالته ونهضته ، وما يستطيع أن يقدم للنهضة العربية من أفق مثالى ، وخلق إيمانى ، وزاد فكرى .

ثم أدلى سيادته الينا بالحديث القيم التالى ، رداً على الأسئلة التى وجهت إليه من تحرير المجلة :

لماذا اخترتم لرسالتكم الطريقة الشاذلية بالذات ؟

لقد كونت لنفسى منهجاً فى دراسة التاريخ الإسلامى ، وقوام هذا المنهج ،

إننا نستطيع أن ندرك انتفاضات الشعوب الإسلامية ، وانفعالاتها التاريخية ، وعاداتها وتقاليدها وروحها ، عن طريق دراستنا للتصوف .

إننا يجب أن نصور التاريخ ، تصويراً صوفياً حتى نفهم نفسية الشعوب ، وخطوط حياتها العريضة .

ولقد لعبت الطريقة الشاذلية دوراً إيجابياً حاسماً فى تاريخ الشمال الأفريقى . فشكلت عاداته وأخلاقه ، وشئون حياته ، ولعبت دورها الكبير أيضاً ، فى الانتفاضات القومية ، ضد الغزو الفكرى والحربى لهذه المنطقة .

لهذا قصدت أن أدرس البيئة الصوفية ، وأن أؤرخ لهذه الشعوب العربية ، عن طريق دراستى للطريقة الشاذلية .

ما هى الطرق الصوفية فى سيلان ، وما هى مكانتها ؟

لقد انتشر الإسلام فى آسيا عن طريق التصوف ، ولهذا انطبعت الحياة العامة فى تلك البلاد بطابعه .

وفى سيلان مثلا كل مسلم لابد وأن ينتسب إلى طريق صوفى ، وفى كل بلد من سيلان ، زاوية صوفية ، وهناك فى العاصمة زاوية تسمى — أم الزوايا — من خمس طوابق ، وهى مركز القيادة الروحية الصوفية .

والأولاد هناك يتربون تربية صوفية فيذهبون إلى الزوايا كل صباح .

وفى سيلان طرق صوفية متعدده ، أشهرها الشاذلية والقادرية والعلوية .

هل يوجد عرب فى سيلان ، وما مقام المسلمين هناك ؟

المسلمون فى سيلان ينتسبون إلى أصلين كبيرين ، أصل عربى وقد قدموا من حضرموت واليمن ، وتكتب لغتهم بالعربية .

والفريق الثانى وفد إلينا من الملايو ، والمسلمون فى سيلان جميعاً شافعية ، ولهم مكانتهم الكبرى ، فى حياة البلاد ونهضتها ، وهم جميعاً يتطلعون إلى العالم العربى عامة ، والجمهورية العربية خاصة ، كمركز لقيادتهم الروحية والفكرية .

ما هى رسالة الجمعية الإسلامية بجامعة لندن ؟

كون هذه الجمعية الطلبة المسلمون فى جامعات بريطانيا ، ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف طالب ، من شتى بقاع العالم الإسلامى .

وهدف هذه الجمعية ، رعاية الطلبة المسلمين والعناية بهم روحا ومادة ، وتزويدهم بحقائق دينهم .

وأحب أن أقول : إن للتصوف بين أعضاء هذه الجمعية المقام الأكبر ، فقد اعتصموا بأخلاقه ، حيال عالم الغرب المادى .

وفى بريطانيا جماعة تسمى « جماعة الباحثين » وهم صوفية ، ويصدرون مجلة للدراسات الصوفية .

هل فعلت الجمعية شيئاً لتعريف أوربا بالإسلام ؟

فى أوربا رغبة شديدة لفهم الإسلام ، وفى لندن مثلا فى — هايد بارك — تعقد ندوات صوفية ، وهناك منبر إسلامى صوفى دائم يتكلم من فوقه مسلم صوفى بريطانى ، وينادى فى هذا المحاضر بأن مشاكل العالم لا تحل إلا بواسطة الإسلام ، ويحضره جمع كبير من الأوربيين .

وأوربا فى حاجة إلى أن تعرف الإسلام معرفة صحيحة ، ولو تيسرت لها هذه المعرفة ، لتغير وجه أوربا وتاريخها وعقائدها .

ولكن المسلمين لا يحسنون الدعوة لدينهم ، ولا يفهمون الأسلوب الذى يستهوى أوربا .

فمثلا أوربا تهتم بحرية الفرد وتقدسها ، ويظنون وهم على خطأ ، أن الإسلام يهدرها ، ولا يعترف بها ، فلو رفعنا عن أعينهم هذه الغشاوة ، لأثمرت الدعوة الإسلامية ثمراً طيباً .

إن أحد عمداء الجامعات فى بريطانيا ، ألقى محاضرة قال فيها : « إنه يجد حرية الفرد الكاملة ، فى التصوف الإسلامى ، كما يجد فيه حرية التفكير ، والانسانية العالمية »

وفى اليوم التالى ، كانت صفوة من الأساتذة والطلاب يطلبون كتب التصوف الإسلامى ويعكفون على دراستها

هل يدرس التصوف الإسلامى فى جامعات أوربا ؟

يدرس فى أكسفورد ، وكمبردج ، وجامعات أوربا كافة ، كما أنه المادة الرئيسية فى كلية الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

وإنى لأرجو أن تهتم الجامعات العربية والاسلامية بدراسة التصوف ، بل يجب أن يدرس أيضاً فى جميع المعاهد والمدارس .

فثقافة الإسلام الحقيقية ثقافة صوفية ، وفى التصوف فضائل الاسلام كافة .

ماهى رسالة التصوف ، فى العصر الحاضر ؟

أحب أن أقول : إن التصوف يجب أن يفهم أولا على حقائقه العليا ، وأن يجرد من كل دخيل غريب فيه ، حتى يتبلور فى عقول الناس كمنهج تربوى وأخلاقى وثقافى ، وكقوة بانية للحضارة .

وإن من أخطر ما أصاب التصوف أن بعض الباحثين يكتبون عن التصوف ويدرسونه ، وهم لا يؤمنون به ، إذ لابد من الايمان أولا .

فإذا تم هذا ، فالصوفى ، أقدر الناس على حمل رسالة الاسلام ، وأقدر الناس على الدعوة إليه .

والتصوف هو نواة الوحدة الاسلامية ، فالطرق الصوفية توجد فى العالم كافة ، ففى سيلان مثلا ، الطريقة الشاذلية ، وتجدها فى مصر والسودان والمغرب والهند وأندونسيا وهكذا .

فلو عقدنا ندوات ، أو مؤتمرات صوفية عالمية لاستطعنا أن نوجد روابط قوية بين البلاد الاسلامية .

وفى هذه المؤتمرات يمكن أن نحدد المنهج الاسلامى ، ونضع الهيكل الثقافى للنهضة والقاهرة هى مركز الاشعاع للعالم الاسلامى ، وإليها تتجه الأنظار ، وعليها تعقد الآمال .

وسوف أقترح إن شاء الله فى مؤتمر الجمعيات الاسلامية ، عقد مؤتمر عالمى صوفى ، كما سأقترح أن تكون القاهرة هى مقره الدائم ..